كلمة التحرير

الفكر الإسلامي المعاصر وسؤال النهضة

رئيس المعهد

"الربّانيون فوق الأحبار؛ لأنَّ الأحبارَ هم العلماء، والربّاني الجامعُ إلى العِلْم والفقه، البَصِرُ بالسياسة والتدبير والقيام بأمور الرعية، وما يصلحهم في دُنياهم ودينهم".

الطبري

"لم يبق أمامنا من سبيل سوى أن نتناول المعرفة العصرية بنزعة من الإجلال، وفي روح من الاستقلال، والبُعد عن الهوى. وأن نقدّر تعاليم الإسلام في ضوء هذه المعرفة، ولو أدّى بنا ذلك إلى مخالفة المتقدمين."

محمد إقبال

" هذا الخراب الذي وقع بجهة الجنوب وأقطاره أمر له ما بعده" "وانتقض عمرانُ الأرض بانتقاض البشر فخربت الأمصار والمصانع ودرست السُّبل والمعالم وخلت الدِّيار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدّلَ السَّاكنُ. وكأنّي بالمشرق قد نزلَ به مثلُ ما نزل بالمغرب" "وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة والله وارث الأرض ومن عليها".

هذه كما هو معروف بعض الجُمل الشهيرة التي عبّر بها ابن خلدون في المقدّمة عن الحيرة التي أخذ حينها عددٌ متزايد من المسلمين يشعرون بها خصوصاً في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلادي.

هلْ تغيّرت الأوضاع بعد أكثر من ستّة قرون؟ طبعاً لم تتوقف عجلة الزمن والتاريخ ولكن حيرة العالم الإسلامي تجاه تدهوره الحضاري ظلّتْ في ازدياد وتفاقم خصوصاً مع

توسّع المدّ الأوروبي الحديث والشعور المتزايد بالعجز عن تقديم ردّ ناجع على التحدي الحضاري –المعرفي والتكنولوجي والسياسي والعسكري إلخ– الذي يمثله.

تلاحقت وتزاحمت الأسئلة حول "الذات" و"الآخر". ولعل من أشهرها في تاريخ المسلمين الحديث والمعاصر، هو ذاك السؤال الذي قدَّمه شكيب أرسلان (توفي 1946)، عنواناً لكتابه: لماذا تأخَّر المسلمون ولماذا تقدَّم غيرُهم؟! الذي ظهر سنة 1939. وعلى الرغم من أنَّ المعالجة النقدية التفحّصية التي قام بها أرسلان في كتابه لم تكن بحجم قيمة السؤال وأهميته في السياق الحضاري، إلا أنَّه استطاع صياغة "سؤال النهضة" كما سمّته — قبل أرسلان بعقود– أدبياتُ القرن التاسع عشر، في عنوان كشف عبر انتشاره السريع ليس فقط عن حجم الصدمة التي كانت تعانيها نخب العالم الإسلامي عشية الحرب العالمية الثانية ولكن أيضاً عن نوع هذه الصدمة.

يجدر بنا أن نتساءل: هل ما زال هذا التقابل، الموحي بصدام واقع أو وشيك بين المسلمين من جهة وغيرهم من جهة أخرى، وجيهاً اليوم في عالم صغّرته وقرّبته وسائل الاتصال؟!

فبعد أن كان المصلحون يعترفون بتخلّف العالم الإسلامي ويحاولون مقاربة أسباب تخلّفه، رغم محدودية أدواتهم المعرفية كما يظهر لنا ذلك جليّاً اليوم، أصبح الاعتداد بالذات الإسلامية مبالغاً فيه خلال العقود الأخيرة، وأدّى هذا الاعتداد إلى نتائج مدمّرة أخطرها الرضا بالتخلف بل عُدّ تقدّماً وتمسّكاً بالثوابت. فتَكَرَّسَ تبعاً لذلك التقوقعُ على الذات ومقاومة كل جديد. وطبعاً عندما أخذ الحديث عن هذه العلاقات منحىً سجالياً إيديولوجياً كان من المتوقّع أن يحاول كل طرف من أطراف العلاقة أن يكوِّن رؤيةً محدَّدة لذاته، ورؤيةً محددة للطرف الآخر.

هل فقد السؤالُ عن التأخُّر أهميته وزخمه اليوم في جزء كبير من العالم الإسلامي؟!

لا شكَّ أنّ مناطق من شمال إفريقيا والشرق الأوسط وأجزاء من آسيا الوسطى، تبدو اليوم وهي تعيش وقتاً مظلماً، يتميز بوضع سياسي يزداد أكثر فأكثر انغلاقاً، في

ظل حالة من عدم الاستقرار المؤسساتي وتدهور اجتماعي متفاقم. ويبدو كذلك أن الانقسام والتَّفتُّت أصبحا واقعاً ملموساً؛ فمصطلحا العالم الإسلامي والعالم العربي لم يعودا دقيقين. لأنّه لا الأول ولا الثاني يتمتعان بأي مستوى حقيقي من الوحدة العملية أو النظرية. فكأن السؤال الأول: لماذا تخلّف المسلمون وتقدَّم غيرهم؟ لم يعد وجيها، وحلّ مكانه سؤال آخر أكثر دقة وهو: لماذا ما زال جزء من العالم الإسلامي –في المنطقة العربية، وفي أفريقيا وآسيا الوسطى، على سبيل المثال– يراكم التخلُّف، بينما بلدان جنوب شرق آسيا ذات الغالبية المسلمة سلكتْ طريق التنمية وحققت تقدُّماً ملموساً نسبياً معترفاً به عبر أغلب المؤشرات المعتمدة عالمياً؟

وتبرز في هذا السياق عدة أسئلة من أهمها: هل يمكن طرح مسألة التطور والتنمية في القرن الواحد والعشرين بنفس تصوّر مفكري وكتاب القرن التاسع عشر؟ وإذا كنّا على قناعة بأنّ لكل عصر أسئلته الخاصة به، فما هي أسئلة عصرنا التي يحاول الفكر الإسلامي المعاصر الإجابة عنها، لكي يدخل بوابة المشاركة في صنع الإنسانية معرفياً، بدلاً من أن يأوي إلى ركن التلقّي دون فاعلية في الإسهام الحضاري؟

وبناء على ما تقدّم من محاولة وضع سؤال النهضة أو بالأحرى أسئلة النهضة نفسها محل مراجعة، نسعى إلى استقراء ومواكبة عدد من المقاربات المعرفية في الفكر الإسلامي المعاصر التي حاولت تلمّس طرق جديدة أو بديلة. لا سيما إننا نعيش الآن في مرحلة نستطيع القول فيها –بشيء من الاطمئنان– إننا قادرون على تحديد تصورٍ واضح نسبياً عن طبيعة العلاقة بين التبعية والتخلُّف والسُّكون وثقافة الإمّعية من جهة، والتحرر والتطور والإبداع من جهة أخرى، فمشروع النهوض لا يمكن أن يتحقق في مجتمعات ما زالت تتكئ على الأوهام وتَمَنّيات الماضي، وعلى عظام الأجداد والآباء دون تجاوز ذلك إلى الحاضر والواقع. ولن يتحقق النهوض المرجو إلا بالتمثُّل الكبير لمفهوم الوعي المتقدم أو الوعي اليقظ، الذي يَعني من بين ما يعني تفحّصَ المنطلقات والآليات التي يلزم توفرها في البنية المعرفية للمثاقِف من حيث هو كذلك.

وكما لا يخفى أن أسئلة النهضة متصلة اتصالاً وثيقاً بمنهجية التفكير، فمن الضروري الحرص على تفعيل التفكير البِنائي الذي يستثمر الرصيد المعرفي والفكري للذات، والذي يستدعيهما عبر الأدوات المعرفية المعاصرة وعبر استخدام هذه الأدوات برؤية ومنهج نقديين.

نسعى إذاً إلى تأسيس شخصية قادرة على التفكير بحرية دون الارتهان لأنماط الاستلاب أو الإسقاط، أي دون الارتهان "لمركزية" الماضي أو "لمركزية" الآخر.

من البيّن بذاته أن التأسيس المعرفي لأي سؤال أو إجابة حضارية يقتضي من الذات تفاعلاً مستمراً مع الأصول التأسيسية، وتفاعلاً نقدياً مع تاريخية فهم هذه الأصول، وتقويماً لمثل هذه الجهود في البناء الحضاري. ويقتضي كذلك بداهةً تفاعلاً مع المعرفة الإنسانية والتراث الإنساني بوصفهما خبرة متاحة للجميع.

يأتي هذا العدد من مجلة "الفكر الإسلامي المعاصر" بحُلّته الجديدة امتداداً للجهود التي بذلها مؤسسو المعهد العالمي للفكر الإسلامي، لا سيما من تولوا التنظير والتأطير الفكري، والذين أشرفوا على صياغة رؤية المجلة منذ عددها الأول الذي صدر عام 1995، واجتهدوا في محاولة الكشف عن الخلل الذي أصاب العقل المسلم منذ ركون المجتمع إلى التقليد والتبعية، فجاءت إسهامات المعهد العالمي للفكر الإسلامي من خلال إصداراته الفكرية وندواته ومؤتمراته، لتُشكّل حلقة مهمة من حلقات إصلاح الفكر الإسلامي.

وهذا التجدد المستمر مطلب رئيس، فمبدأ الحركة مفردة أصيلة في الفكر الإسلامي، ليبقى الفكر في مراجعة دائمة كل حين، مستثمراً بناءه التأصيلي المكين، وقدرته على استثمار الحاضر بصورة إيجابية. وهذا الطَّيف الجديد للمجلة المتمثل في العنوان والأهداف والأعلام، هو امتداد لهذا الحراك التجديدي الذي بدأته المجلة منذ عددها الأول، وفيه معنى التفاعل مع الزمان والمكان. ونحن على يقين إن شاء الله أن هذا العدد وما بعده يستمدُّ روحه ومبادئه من اللحظة البِكْر التي كانت عام 1995، متشابكاً مع قضايا العصر، ليكون ثمة معنى ووجود لهذا الفكر في الحضارة الإنسانية.

ولا يسعنا في هذه الافتتاحية إلا أن نعبّر عن شكرنا وعرفاننا بالجميل للأساتذة والعلماء والمفكرين؛ أعضاء هيئة التحرير والهيئة الاستشارية السابقين. ونخص بالشكر رئيس تحرير المجلة الدكتور فتحي حسن ملكاوي؛ الذي أشرف على إدارة المجلة منذ عام 2006، وأسهم ومن معه من أعضاء هيئة التحرير في تطوير عمل المجلة، وتمكين المجتمع العلمي والفكري والثقافي من التفاعل مع مسألتي "إصلاح الفكر الإسلامي" و"التكامل المعرفي"، وبَسْط يد التحاور والتفاعل مع الباحثين من شتّى البقاع، من خلال نشر أبحاثهم الرصينة في مجلة علمية عالمية محكمة. وهو الجهد الذي سنحرص إن شاء الله على مواصلته وعلى تجديده وتكثيفه. وهذا ما نرجو أن يلمسه حثيثاً الباحث والقارئ في هذا العدد وفي الأعداد القادمة.

وإذ تستكمل المجلة مسيرتها الفكرية والحضارية بحضور مميز لرئيس التحرير الجديد الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل المفكر والأديب المعروف وأستاذ التاريخ الإسلامي، الذي كان لإسهاماته الفكرية والعلمية الحضارية بصمة واضحة في تشكيل رؤى معرفية مهمة في الفكر الإسلامي المعاصر. وبحضور مميز كذلك للدكتور بدي المرابطي؛ المفكر المعروف وأستاذ الفلسفة السياسية والاقتصادية بجامعة باريس–دوفين، ومدير معهد الدراسات الإبستمولوجية ببروكسيل. اللذيْن نأمل أن تنعكس بصماتهما ورؤاهما الفكرية على خارطة المجلة الآنية والمستقبلية.

وتشدُّ المجلة أزرها بمجموعة معتبرة من العلماء والمفكرين في هيئة التحرير والهيئة الاستشارية، المشهود لهم بالحكمة والمعرفة في مختلف المعارف والعلوم؛ إذ إن الوحدة في رؤيتهم والتنوع في تخصصاتهم سيسهم إن شاء الله في بلورة أنصع لمفهوم التكامل المعرفي، وتمكين الرؤية الحضارية في الحقول المعرفية المختلفة.

هشام يحيى الطالب

رئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي